الانقلاب
على
عبد الناصر
قضايا ..
وإشكاليات

الفصل الأول

عبد الناصر ....

المُفترى عليه !

obeikan.com

obeikan.com

الانقلاب على عبد الناصر!

مرت ذكرى رحيل الرئيس جمال عبد الناصر ولا زالت ذاكراه الأجيال تحتفظ بعويل شباب وشيوخ وأطفال ونساء الأمة العربية- في هذا التوقيت- وهو يشق يمنان السماء أسفاً وحزنا على غياب زعيم القومية العربية..

المؤلم أن ذكرى الرحيل تهبط علينا ثم تمر دون أن يدرى بها إلا القليلون، وهو برهان قاطع على أن أمة العرب قد هرب من خصالها (خصلة الوفاء) فالرجل الذي أفنى حياته من أجل أن يكون للأمة العربية من المحيط إلي الخليج سمعة دولية ترنج لها- احتراماً- المحافل العالمية لا يذكره إلا نفر هنا، وآخر هناك.. بل الكارثة أن دولة في أفريقيا هي جنوب أفريقيا قد أقامت في هذه المناسبة احتفالا مهيباً واستدعت ما وصفته بزعيم ثورات التحرر الوطن في العالم الثالث إلي ذاكرتها.. بينما مرت الذكرى في المنطقة العربية في صمت أشبه بصمت القبور.. وفي ظن أن هذا الصمت ليس سببه أن صاحب الذكرى (جمال عبد الناصر) غفل أو نكره لا يعرفه أحد، ولكن لأن الجميع يعلم أن ما ناضل من أجل زواله عاد يحكم على الصدور ويكمن الأنفاس.. وهو بهذا المعنى صمت أو إهمال متعمد (حياء) من الرجل (وخجلاً) من سيرته وكفاحه..

فلقد سعى الرجل عبر ثورته البيضاء إلي القضاء على الاستعمار وأعوانه، فإذا بالاستعمار يعود (عوداً أجمداً) وتنتشر قواعده العسكرية في الخليج وغير الخليج، ويملأ الأمريكان الأرض العربية من مشرقها إلي مغربها، وتعود التحالفات لتجعل الدول العربية في حالة حذر وتوجس وخوف من بعضها البعض.. متوهمة أنه لا ملاذ لها سوى سماء الأمريكان والاستعمار الجديد..

ناضل عبد الناصر من أجل توسيع رقعة الطبقة الوسطى وأخذ من الأغنياء والإقطاعيين ليعطي إلي الفقراء والمعدمين.. واليوم ومع ذكرى رحيله الثانية والثلاثين تآكله الطبقة الوسطى، وانقسم المجتمع في مصر (وغيرها) إلي طبقتين:

طبقة الأغنياء (غنى فاحش) والفقراء (فقرا مرقعاً) وتاهت ملامح مجتمع الكفاية والعدل التي رسمها الزعيم جمال عبد الناصر لتحل محلها ملامح جديدة المجتمع الانتهازية، والفساد، والحرائق التي تأكل قلوبنا مع تراثنا، وتتركنا رماداً (يابا) كفا في زمن عبد الناصر نثق في أننا (سيد) في ظل الجمهورية، وأن يبدأ تكافؤ الفرص هو ضابط إيقاع الترقي وشغل الوظائف.. وأن شعبنا وجماع التآلف بين قوى الشعب العاملة..

أقول مؤكداً إن الصمت عن ذكرى رحيل عبد الناصر هو أكبر دليل على شعور العرب بالجرم الذي ارتكبوه في حق الأمة العربية وليس في حق عبد الناصر فقط! ويبقى جمال ما بقيت الحياة في مصر.

«الثورة المضادة» لثورة يوليو ١٩٥٢

ليس سراً أن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بقيادة عبد الناصر، تتعرض منذ سنوات، وتحديداً منذ جلس أنور السادات على مقعد الرئاسة، لانقلاب يستهدف شخص عبد الناصر – بالدرجة الأولى – وأيضاً معظم إنجازات هذه الثورة البيضاء.

ولقد كشف هذا الانقلاب مُفكر مصري كبير «هو الدكتور غالى شكري»، عبر أطروحة للدكتوراه تقدم بها في باريس في منتصف ثمانينيات القرن الماضي، وكانت تحت إشراف شيخ المستشرقين الفرنسيين جاك بيرك، الذي عاش في مصر في زمن عبد الناصر وعمل في جامعاتها وكان عضواً في المجمع اللغوي المصري، الأطروحة بعنوان: «الثورة المضادة في مصر» ولصاحبها الفضل كأول من وضع يده – فعلاً لا قولاً– على الخطوات المنظمة التي وضعها الرئيس السادات لكي يمحو عبد الناصر من ذاكرة المصريين!

فتذكر الأطروحة أنه لم يكن من قبيل المصادفة أن تتفجر – جدلاً ونقاشاً عميقاً – قضايا تشكك في جدوى مشروع بناء السد العالي وتحمله مسؤولية «البوار الزراعي» الذي تعانيه مصر في العقدين الأخيرين! كما شغلت الناس – عن عمد–

قضية حرب اليمن ومشاركة مصر فيها «جنداً وعتاداً».. واتجه المخطط أيضاً إلى الاستخفاف بواحد من أهم إنجازات عبد الناصر وهو مجانية التعليم، والصحة والرعاية!

أقول إن هذه الأطروحة التي حصل صاحبها على تقدير امتياز وتمت طباعتها وتبادلها مع الجامعات الفرنسية والأوروبية، قد فضحت هذه الثورة المضادة في وقت مبكر، لكنها كانت مؤشراً نحو تنامي هذه الروح المعادية لكل المكتسبات التي حصلت عليها الطبقة المتوسطة المصرية، وطبقة الفقراء والمعدمين التي كانت الفائز الأكبر طوال حكم عبد الناصر، ونستطيع أن نقول إن الثورة المضادة لثورة يوليو ١٩٥٢ تشرنقت لبعض الوقت ثم خرجت علينا في صور جديدة، وكلنا يعلم أن عودة الملك فاروق: كتبا، ودراما، وتليفزيونا، وسينما، لم تأت من فراغ، وإنما جاءت مع سبق الإصرار والترصد، وما الكتابة عنه بهذه الرومانسية والنوستالجية «أي الشعور الغامر بالحنين إليه» إلا إحدى شباك هذا المخطط..

إلى حد أن المواطن العادي طرح السؤال: إذا كان المليك الغالي «فاروق» بهذه الدرجة من الوعي السياسي، والحس الوطني اللامحدود، والعشق الخالص لمصر «أرضاً وشعباً وسماءً» فلماذا قامت ثورة يوليو من الأساس، وغاب عن بال هؤلاء المشاركين في جريمة «الثورة المضادة» أن النظام المصري «من زمن السادات وحتى اليوم» يستمد شرعيته الأولى من ثورة يوليو وقائدها، ولم لا، ألم يخرج من عباءتها وملأ الدنيا ضجيجاً بمبادئها وشعاراتها، وإلا ما معنى أن الرئيس السادات كان لا يمل من تكرار عبارته التي كان يقول فيها: «إنني كنت شريكا فعلياً في كل القرارات التي اتخذها عبد الناصر»، وكان يصر الرئيس السادات على أن يقرن اسم عبد الناصر بدعاء شهير هو: الله يرحمه!!

وشملت هذه الحملة ضد عبد الناصر والثورة إلى جانب إيقاظ الملك الوسيم فاروق حديثاً تشكيلياً عن حرب ٤٨، وصفقة الأسلحة الفاسدة.. إذ ذهب

أصحاب الثورة المضادة إلى أن الأسلحة كانت سليمة والفساد كان في الأشخاص وليس في العتاد «مع التلميح في شيء من خبث إلى قيادات الثورة المصرية.»!

وعندما شعر المتآمرون على الثورة أن يقظة فاروق لم تكن أكثر من رصاصة طائشة في الهواء لم تنزعج منها حتى الطيور الغافية على الأشجار، لحقت بمحاولات عابثة سابقة لمحو عبد الناصر من الضمير المصري الحق، تميزت قلوبهم غيظاً وتفتقت أذهانهم عن محاولة عابثة أخرى هي الحديث كثيراً وكثيفاً عن اللواء محمد نجيب واصفين إياه بأنه المفجر الحقيقي للثورة المصرية إلى حد أن التليفزيون الرسمي المصري «القناة الأولى وقناة النيل للأخبار» عرض مثنى وثلاث ورباع، قراءة – وتعليقا على الصور الأرشيفية – تتحدث فقط عن محمد نجيب.. ولا وجود لعبد الناصر ورفاقه!

الغريب والعجيب أن خيوط هذه المؤامرة على ثورة يوليو من خلال هذه الثورة المضادة تتداخل وتتلامس، وتتشابك في اتجاهات عديدة بهدف واحد هو القضاء على عبد الناصر.. وهيهات أن يتحقق لهم ذلك، ففيلم السادات الذي أشرفت على كتابة السيناريو له السيدة جيهان السادات بنفسها – حسبما اعترفت في حواراتها – والذي ظهر فيه عبد الناصر وكأنه مجرد كومبارس رديء! لم ينجح في أن يجعل الناس تنسى فيلم ناصر ٥٦، بل وأن تبكى أمام بعض المشاهد التي جسدت حب وصدق ونزاهة هذا الزعيم المصري الخالد.

وعمل متحف كبير للسادات في القرية الفرعونية وآخر إلكتروني في مكتبة الإسكندرية، دفع الناس دفعاً للتزاحم داخل متحف صغير ومتواضع لعبد الناصر في ذات القرية، لكنه كبير وعظيم بحب كل المصريين.

خلاصة: إن مثقفنا وناقدنا الكبير صاحب الأطروحة لفت الأنظار بقوة – قبل ما يقرب من ثلاثين عاماً – نحو الثورة المضادة لعبد الناصر وثورته وإنجازاته العريضة.. وها نحن اليوم نقر ونعترف بشيئين:

الأول: أن صاحب الأطروحة كان على حق عندما فضح المستور، ووجه سبابته نحو المتآمرين الذين تكاثروا وأصبحوا كغثاء السيل اليوم.

الثاني: أن عبد الناصر أكبر وأعظم من أن تناله هذه الرصاصات الحاقدة والطائشة لسبب بسيط هو أنه يسكن قلوب أهل مصر الطيبين «من فقراء ومعدمين»، وتحمله الصبايا مع الجرار على رؤوسهن في ريف مصر.. وتلهج ألسنة الآلاف من المرضى بالدعاء له في صمت، وهم يقفون مطأطئي الرأس أمام بوابات المستشفيات الاستثمارية التي تعتبرهم جرذاناً وصراصير.. «بعد أن اندثرت المستشفيات المجانية».. أما الأطفال الصغار فعبثاً يغرسون عيونهم في كراسة المطالعة بحثاً عن كلمة عبد الناصر الشهيرة: كلنا سيد في ظل الجمهورية!!

ويبقى «جمال» ما بقيت الحياة في مصر!

تمر السنوات (واحدة وراء الأخرى) وتتغير الأشياء والأسماء، والطباع، ونأمل أضواء، وتلمع أخرى، ويبقى اسم جمال عبد الناصر راسخاً في ضمير الأجيال العربية مُحاطاً بأسمى آيات العرفان والامتنان (القائد) تتضاءل بجواره القيادات والقامات، رغم محاولة (؟؟؟) بحجم الأقزام النيل منه أد التشويش على ذكراه..

غاب (جمال) عن سمائنا فعشنا ظلمة (؟؟؟) (يصعب فيها التمييز بين الخيط الأبيض والخيط الأسود) وتخبط (الكُل في الكل) بعد أن اختلفت الأوراق وتاهت معالم الأشياء. وتناسى الناس ما كان ينبغي ألا ينسوه (اليوم أوغداً أو بموعد) تناسوا صرخات الابن البار (جمال) الذي وزع الأراضي على الفلاحين، وبني المستشفيات لعلاج الفقراء بالمجان، وأنشأ مدرسة ابتدائية كل ثلاثة أيام، وأصدر كتاباً كل ست ساعات لكي يتعلم أبناء الفلاحين ويتثقفون..

وحفظ للأفراد كرامتهم، وأخذ من الغني ليعطي إلي الفقير وأصبح لمعد- في

زمنه- وهج وتآلف جعلها تجلس في خيلاء في المحافل الدولية.. وبرعم (جمال) في أن يصل ماضي مصر (؟؟؟) بحاضرها (المتفائل) ومستقبلها (الواعد) وأصبح للعلم عيد، وللفلاح عيد، وللسد عيد، وتحولت أيام مصر- كلها- إلي أعياد.. وحمل كل شاب نفسه من المشروع القومي المصري، فرض قلب العروبة النابض، وبلاد العرب أوطاني، وأني يسير يسمع لفته العربية، وترانيم أديانه السماوية، ويقرأ أمجاد العرب في صفحات التاريخ والآمال والآلام، والعادات (التقاليد المشتركة).

لن يمحو الزمان اسم جمال عبد الناصر لأنه سكن القلوب (؟؟؟) وأصبحت محبته (إرثا) ينتقل من السلف إلي الخلف دون نقصان، أما سيرته الطيبة، فترويها أشجار النخيل والقطن في حقول (مصر المحروسة) وترتفع بها عقيدة الفلاحين البسطاء الذين شربوا مع مياه النيل قيمة الوفاء لابن مصر البار (جمال)..

وستظل سنوات حكمة (نبراسا) يخبئ النفوس (؟؟؟) إلي الحرية والمنطلقة إلي (غد) يكون أفضل كثيراً من حاضرها.. والمتمسكة في ذات الوقت بأوامر أسرية قوية. وبنيان اجتماعي مرصوص، وقيم مجتمعية لا يفنيها الحديد.. فلقد كان جمال اسماً (ومعنى) ومثالاً يحتذي، فلا شيء يعلو على الوطن، ولا شيء يضاهي ترابه (ريحاً وطيبا) لأنه تراب طاهر، دمر محتليه، وهزم (؟؟؟) وأشعل شموعا لشهدائه من (الأبرار الأحرار)..

وسيحفظ هذا الوطن اسم جمال عبد الناصر في أعماق القلوب، وحنايا النفوس، فهو مُضجر الثورة وطالب الرقي والرفعة، لشعبه وشعوب العالم التي أزلها واستعمرها الغزاة ومن عجب أن محاولات الأقزام محوه من ذاكرة الناس قد باءت بالفشل بينما ازداد (وهجاً) في قلوب (؟؟؟) من سقوب أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.

بالقطع سيبقى جمال ما بقيت القلوب تنبض في مصر والأمة العربية.

متحف لـ «حبيب الملايين»!

الحديث عن تحويل بيت الزعيم جمال عبد الناصر إلي متحف جعلني – رغما عني – استدعى من الذاكرة المواقف التالية:

كان ذلك في عاصمة النور (باريس) قبل أكثر من عشرين عاما عندما وجدتني في مواجهة غريبة مع مدير برامج إذاعة الشرق التي (؟؟؟) إرسالها من باريس وتطلق على نفسها راديو المهاجرين والمغتربين في أوروبا.. والسبب هو أنني انتهزت من ذكرى رحيل جمال عبد الناصر التي تمر كل عام في ٢٨ سبتمبر، وأعددت ثلاث حلقات في برنامجي الذي كان يحمل اسم «كلام في الهواء» تتحدث عما حدث في هذا اليوم من عام ١٩٧٠ وهو تاريخ وفاة الزعيم..

وأذكر أني لا يميت أن البعض قد لا يجب أن أتحدث بشكل مباشر عمن ناصر، والناصرية والفكر القومي العروبي الذي نفتقده مع ارتفاع نعرات الذاتية والنرجسية، الإقليمية..

ولذلك ركزت في هذه الحلقات على شعور العرب – كل العرب – (؟؟؟) المصاب، وكيف استقبلت الشعوب نبأ وفاة عبد الناصر، ثم صوّرت – مجدداً – الزحام الذي ملأ أرض مصر وسمائها صعود المواطنين فوق أعمدة النور، وسفر الفلاحين البسطاء إلي القاهرة سيراً على الأقدام ودموعهم تسبق خطواتهم..

وأذكر أن مدير البرامج بالإذاعة أخذ يجادلني في كل ما كتبه وانتهي إلي القول بأنه يفضل ألا أتحدث في هذا الموضوع، وأضاف باستخفاف، أو على الأقل ما ظننته استخفافا، يقول: دع عبد الناصر في مرقده مرتاح البال، وأبحث عن موضوع آخر..

وأقسم أني كدت أستشيط غضباً عندما أصرّ على موقفه مُشيرا إلي أنه – من سابع المستحيلات – أن يتركني أتكلم عن عبد الناصر..

وشعرت بأنه طعنني بسكين في صدري عندما قال: يمكنك أن تتحدث عن الفنانة شريهان أو عن المطرب الشعبي أحمد عدويه (وكانت شهرتها تطبق الآفاق في ذلك الزمان).. وأن ترسل ما شئت في الحديث أما عبد الناصر.. فلا مجال له في إذاعتنا.. نسيت أن أذكر أن هذه الإذاعة، أسسها رجل أعمال لبناني ثم اشتراها منه لاحقا رفيق الحريري رئيس وزراء لبنان، ولذلك كانت إدارتها لبنانية حرفه.

وكدت أدخل في عراك بالأيدي مع مدير البرامج الذي بدالي كارهاً لعبد الناصر، وفارضا حصاراً– لا معنى له– حول شخصه وكثرته ونظام حكمه..

وبعد أن أخذت أسدد الكلمات– كالرصاص– إلي رأس الرجل متهما إياه بالجهالة، والتفاهة، وسوء الطوية.. بينما كان واقفاً في مكتبه، مُكفهرّ الوجه، مُحتقن الأعصاب.. يستمع إلي اتهامي دون أن ينبس ببنت شفه.. وفجأة وجدت الرجل يبكي مُستعطفاً، وراجيا أن أكف عن الكلام، وقال في حشرجة:

أرجوك لا تتهمني بما ليس فيّ.. مفيد التآمر في القلب، وتعلقنا به في المشرق العربي– وتحديدا في بلاد الشام– أشبه بالإدمان الذي يسري في الدم سريان الماء في العود..

وهبط الرجل بجسده على أقرب مقعد، وأخذ يحدثني عن «الزعيم» والشغف به، والعروبة التي انطلقت في سماء العرب على يديه وصوره التي كانت– ولا تزال– تملأ جدران البيوت.. ثم خُطبه التي يحتفظ بها في بيته (في بيروت). وبدا لي الرجل وكأنه يقرأ في كتاب مفتوح.. وهو يردد مقاطع من بعض هذه الخطب..

ثم ازداد وجه الرجل احتقانا وتغير صوته من شدة التأثر وهو يتحدث عن المصائب التي وقعت على العرب بعد رحيله والحكومات التي باعت الغالي والرخيص من أجل البقاء في مقاعد السلطة، والقواعد العسكرية الأمريكية التي ملأت الأرجاء من حولنا وفي بلادنا.. ثم التعليم المجاني الذي أصبح أثراً بعد عين، والمصانع التي أصبحت هواء وكرامة العرب التي أصبحت في الطين..

تعلوها الأوحال..

ما وددت أن أذكره هو أن مدير برامج إذاعة الشرق توقف عن الحديث فجأة، والتفت نحوي، وأخذ يحدثني في صوت زاعق، ناقم، يريد الانتقام.. وقال: لست في حاجة إلي أن تعلمني كيف أحب عبد الناصر.. ففي حق بلده، طردوا السيدة الفاضلة زوجته (تحية كاظم) من بيتها وكان الأولى أن يحولوه متحفاً للزعيم والزعامة..

وأسترسل يقول: نحن الذين عشقنا عبد الناصر ورفعناه بسيارته فوق الأعناق في لحظة مشهودة تحتفظ بها الذاكرة العربية.. أما أنتم– في مصر– فلقد تنكرتم له، وأوسعه نفر منكم نقداً واتهاما وتشكيكا في وطنيته، وذمته المالية.. وهو بريء من كل ذلك..

أقول: لقد تذكرت هذه الواقعة، بينما كانت عيناي تجدي على سطور تقول: إن الرئيس مبارك قرر تحويل بيت عبد الناصر إلي متحف.. وحدثتني نفسي: ليت مدير برامج إذاعة الشرق في باريس يكون حياً ليعرف أن مصر قد تتأخر في اتخاذ القرار الصائب، لكنها تتخذه ولو بعد حين..

عبد الناصر.. الزعيم الأسوأ حظا!!

لست أشك لحظة واحدة في أن الرئيس جمال عبد الناصر هو من أسوأ زعماء العالم حظا، فكل الذين قام من أجلهم بالثورة، وحصل آباؤهم علي حقوقهم المسلوبة يناصبونه ـ ويا للعجب ـ العداء ويتعمدون تشويه الفترة الناصرية، وإلصاق أقذع الصفات بها.

وأذكر أني في منتصف ثمانينيات القرن الماضي أعددت– في ذكري رحيل عبد الناصر– برنامجا للبث عبر إذاعة الشرق في باريس ودارت مناقشة حامية بيني وبين مسؤول البث(وكان لبنانيا) وبعد إصراره علي حذف بعض العبارات انتهي

بالقول:

لا يزايد علينا أحد في حب عبد الناصر، فنحن(أهل الشام الكبير) الذين حملناه بسيارته علي أعناقنا في حدث مشهود، وهتفنا، ولا نزال، بعبد الناصر زعيم الأمة العربية.

وأشهد أني رأيت أساتذة وزملاء لي في الجامعة في أوائل السبعينيات كانوا يبكون(حنينا) وهم يتحدثون عن عبد الناصر، ويدفعوننا دفعا للكتابة في مجلات الحائط عن عبد الناصر(الخالد الذي لا يموت).. ثم وبعد أن تبوءوا المقاعد وذاقوا طعم النفوذ والسلطة كانوا أول القاذفين بالطوب والحجارة لعبد الناصر والفترة الناصرية. وهذا لعمري قمة المأساة في سوء الحظ الذي لازم الرجل.

فمن نكد الدنيا علي هذا الزعيم أن يجد الطبقة الوسطي التي انتصر لها طوال حياته هي ذاتها الطبقة التي تهيل عليه التراب، وتتهمه بالصحيح والزائف.. ومعلوم أن هذه الطبقة كانت تشكل٩٩.٥٪ من مجموع الشعب المصري باعتبار أن مجتمع النصف في المائة هو الذي كان يحكم ويحتكر ويتسيد في كل المواقع..

وما أحسبه– بحق– من سوء الحظ أيضا أنه لولا عبد الناصر لما تعلم أبناء هذه الطبقة ولما تمكنوا من الصعود إلي أعلي المناصب.. لكنهم ـ ويا للعجب ـ يتنكرون للرجل ويسومونه(معنويا) صنوف العذاب، ولا يترددون في اغتيال الأخضر واليانع في فترة حكمه لتبدو وكأنها خراب في السياسة والاقتصاد والاجتماع.

وهذا زيف لا يستقيم مع وقائع التاريخ الذي لا يكذب أو يتجمل.

ومن سوء الطالع أيضا أن يعود إلي الواجهة من جديد الإقطاع القديم (الذي دحره عبد الناصر) والرأسمالية المستقلة(التي أممها) لتملك ـ في شراسة ـ أضعاف أضعاف ما أخذ منها، ثم ها هي لم تنس جراح الماضي، فعكفت علي الانتقام(ليس من عبد الناصر الذي أصبح في ذمة التاريخ) وإنما من الطبقة

الوسطي التي تقلصت وتكومت علي ذاتها حتى كادت تذوب وتندثر.. والمثال الصارخ علي ذلك: أن مجانية التعليم والعلاج التي كانت هذه الطبقة من أكثر المستفيدين منها. أصبحت وهما وسرابا.

وتولت العولمة المتوحشة ما تبقي من أمر هذه الطبقة، فدخلت بيوت العمال في حلوان والمحلة الكبرى وحولتها إلي صحراء جرداء..

وأجهز غول الأسعار والتضخم علي الباقي، فتدمرت قلاع الإنتاج، وتصحرت الأراضي الزراعية وجفت الوديان مما أرغم الفلاح علي ترك أرضه، والتسكع في المدينة! وهجر العمال مصانعهم وركبوا البحر في هجرة سرية غير مضمونة العواقب.. وقضت عوامل التعرية علي جميع مظاهر الحياة، وأصبح المجتمع خاليا من أمارات الكفاية والعدل التي لطالما حلم بها عبد الناصر.

.. ومن قبيل سوء الحظ كذلك أن المرحلة التي تلت حكم عبد الناصر(وهي فترة الرئيس السادات) كانت من أكثر المراحل التي تعرض فيها عبد الناصر للهجوم ونكران الفضل، وتنافس الكتاب في تجريحه بدءا بالكاتب موسي صبري وانتهاء بعبد العظيم رمضان مرورا بكثيرين أشهرهم توفيق الحكيم، وثروت أباظة وأنيس منصور. ورغم أن السادات أكد في أكثر من مناسبة أنه كان شريكا لعبد الناصر في كل القرارات.. إلا أن حملات التشويه لم تتوقف وأصبحت كالنغمة التي يعزفها كل طامح أو طامع أو متزلف.. وحتى تكتمل مأساة سوء الحظ فلقد قيض الله لعبد الناصر جملة من المدافعين الذين يفتقد معظمهم إلي المصداقية، فأساؤوا للرجل وسيرته من حيث أرادوا الخير له، وأصبح الانتساب إلي الناصرية ـ بسبب عبث هؤلاء تهمة يتنصل منها الناس كافة. ومما زاد الطين بلة إن المسمون بالناصريين لا تنتهي الخلافات بينهم، ولا يكفون عن التلاسن والتراشق بالاتهامات(بالعمالة، والخيانة، والعمل لحساب أنظمة سياسية أخري) والدليل علي ذلك أن رصيدهم الشعبي فقير، وإنجازهم السياسي والاجتماعي(حزبيا)

هش رغم تمتعهم برياح تسمح بالكتابة وحرية التفكير.. إلا أنهم ـ وهذا هو ديدنهم ـ فضلوا التمويهات والتضليل ولي عنق الحقائق.. والكتابة بأسلوب الفبركات، والأكاذيب فأضروا بصورة(الناصرية) التي أصبحت ويا للأسف ـ مرادفا للمهاترات والسباب والصوت الأجوف. لذلك كان الحصاد النهائي مرا ولم يخلف في الحلقوم غير الغصص المؤلمة..

والغريب أن بعض النظم والقيادات السياسية التي رضعت لبن الناصرية (الطاهر العفيف) وادعت أنها أمينة علي القومية العربية عادت وتنكرت لكل ذلك، وأصبحت من ألد أعداء فكرة القومية والعروبة معا.

وهكذا خسر اسم عبد الناصر من رصيده الكبير دون أي ذنب خصوصا في ضوء الميديا التي لم تترك(في خبث) شاردة أو واردة تتعلق بتراث الرجل الفكري والسياسي إلا وألصقت به الاتهامات.

* أقول أخيرا إن قناعتي أن عبد الناصر رجل سيىء الحظ، لكنه ـ يا للمفارقة ـ الأبقي أثرا وذكرا في النفوس، فمصر الحديثة يذكرها التاريخ برجالات.. عبد الناصر هو أبرزهم.

وأمام حملات التشويه التي يتعرض لها هذا الرجل منذ رحيله وحتى اليوم تكفي زيارة إلي الريف المصري.. فالمفاجأة أن عبد الناصر قابع هناك في صدور الآباء والأمهات.. وهو إرث يأخذه الخلف عن السلف ولعل في ذلك(وحده) العزاء والسلوى من لعنة سوء الحظ التي لازمت هذا الرجل العظيم كظله.

ثورة يوليو.. والجيل «المضحوك عليه»

للمفكر السياسي المرموق الدكتور مصطفي الفقي مقولة يحفظها الجميع عن ظهر قلب يشبه فيها أبناء جيله- ممن بلغوا سن الستين أو يزيد قليلاً- بطابق «الميزانين» في العمارات والإنشاءات العالية والذي لا يتوقف فيه «الأسانسير» لا

في الصعود ولا في الهبوط ولقد حفظها الجميع لأنها مست شغاف قلوب الكثيرين وباتت مثلا ينطبق على جميع الأجيال مع اتساع قاعدة المحرومين من أبسط حقوقهم السياسية أو الإنسانية، ولعلي هنا أعني حقهم بالمشاركة في صنع بلدهم وعاشوا عمرهم كله يكتسبون الخبرات ويراكمونها «فوق بعضها البعض» انتظاراً للحظة يتمكنون فيها من توظيف كل هذه المهارات العلمية والأكاديمية وربما التطبيقية لخدمة الوطن، لكن حيل بينهم وبين هذه الأمنية المشروعة، وعندما حلموا بذلك صغاراً، كما يقول مفكرنا الرائع الدكتور مصطفي الفقي هجم عليهم «أولو الأمر» باللوم والتقريع قائلين: أنتم ما زلتم صغاراً والعمر أمامكم، وعندما حلموا ثانية بالمشاركة وتحمل المسؤولية في مواقع القرار والتنفيذ قيل لهم: لقد بلغ الشيب مفرقكم، ويحسن التخلي عن هذه الأحلام لحساب الأجيال التي تأتي بعدكم!!

ولأن «أولي الأمر» في بلادنا يعطون أنفسهم الحق في أن يحددوا فالدكتور مصطفي الفقي والمجايلون له، تم تهميشهم عن عمد، ولم يتركوا للقلة القليلة منهم إلا الفتات من قبيل ذر الرماد في العيون! أما جيلنا ممن لا يفصله عن جيل الدكتور مصطفي إلا عقد من الزمان فلقد خرج بخفي حنين، واليوم ومع ذكرى ثورة يوليو ١٩٥٢ اكتشف جيلي أنه تم اختطافه لحساب آخرين وانتهي به الحال إلي أن يكتشف أنه جيل مضحوك عليه!

فلقد حرم من كل شيء، أما الكارثة الكبرى أنه فتح عينيه بعد سن الرشد فالنضج، ليكتشف أن كل شعارات الثورة قد تم مسخها مع سبق الإصرار والترصد، فنادت الثورة بمبدأ تكافؤ الفرص، الذي أصبح بفعل فاعل أثراً بعد العين، وقالت «لا» للإقطاع الفكري والزراعي والرأسمالية المستغلة، فعادت من أوسع الأبواب لتسيطر على المشهد المجتمعي بقضه وقضيضه ونادت بامتلاك الشعب والقوى العاملة وسائل الإنتاج، فتم طردهم من وظائفهم باسم

الخصخصة، واكتظت طوابير البطالة بالعاطلين من كل الأعمال و«بالتبعية» طوابير العنف، والتسيب والفهلوة والإدمان وكل الموبقات المجتمعية.

نعم يا دكتور مصطفي، ضحكوا علينا، وقهرونا وامتطونا ووأدوا الأحلام في صدورنا وملؤوا المواقع «بأهل الثقة» حتى لو كانوا أجهل من دابة وذبحوا أهل الكفاءة قرباناً- حسب ما يدعون- لأمن الأمة واستقرار الشعب.

لم ننل سوى الحنظل: نشربه مراً «علقماً» ونكتوي بشوكه وناره، وإذا ما تذمر أحد أبناء جيلي وذكر الثورة المصرية بمبادئها وشعاراتها ضحكوا منه «ملء الإشراق» وهم يترجرجون بكروشهم المنتفخة على مقاعدهم الوثيرة.

وشعر جيلي- والأجيال التالية- بالخيبة تهبط عليهم كهروات جديدة تسحق الجماجم، والمؤلم أن من قام بتجريف وتحريف ثورة يوليو، هم من أكثر من استفادوا منها، لكنهم شاءوا أن تقف الاستفادة عند حدودهم وحدود أبنائهم وأحفادهم أما أبناء الشعب، فلهم الحرمان «بامتياز» وإذا اعترض معترض تحق عليه اللعنة.. باختصار، جيلكم يا دكتور مصطفي وجد عمارة و«أسانسير» وقواعد «ظالمة» تحكم صعوده وهبوطه، أما جيلنا المضحوك عليه فلم يجد لا عمارة ولا «أسانسير» ولا قوانين.. لم يجد يا دكتور سوى «الخراب».

لمصلحة من أجهضتنا ثورة يوليو ١٩٥٢؟.

تحضرني دائماً مقارنة ضاغطة بين ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ والثورة الفرنسية، ليس في الأثر الذي تركته الثورتان وإن كان ذلك لا يقلل من أهمية ثورة ٢٣ يوليو في مصر وتأثيرها في العالم الثالث باعتبار أن للثورة الفرنسية تأثير عالمي من خلال شعارها: حرية إخاء، مساواة..

أريد أن أقول إن الثورتين متشابهتان- وإن لم يكن بنفس الدرجة، وربما بعض الاختلاف يأتي من أننا لو سألنا صفي في المدرسة الإعدادية أو شاب في المدرسة الثانوية عن الثورة الفرنسية لوجدنا في (صدره) إجابة من نوع ما، أما- وهذا هو

اللغز – إذا سألناه عن المبادئ الستة لثورة يوليو ١٩٥٢، لما عرف منها أي شيء!

وأعتقد أن هذا الأمر يُعد جريمة بكل المقاييس شاركت فيها وزارات التعليم والشباب فضلاً عن الإعلام والميديا.. فشخص الرئيس جمال عبد الناصر قد لا يعني شيئاً بالنسبة لطفل في المدرسة الابتدائية..

وهذه الجريمة تقع مسؤوليتها علينا جميعا لأننا – والحالة هذه – غشينا بتاريخ مصر، وشوهنا الحقائق بطمسها حينا أو بالتزيد عليها حينا آخر..

وهذا الحال – في دول كثيرة – تعتبر خطاً أحمر لا يجب الاقتراب منه أو تجاوزه..

تاريخ الوطن يظل تاجاً على الرؤوس لا يمسه إنس ولا جان. لكننا في بلادنا لا نرعى قاعدة أو مبدأ، وتترك كل المقدسات – الوطنية أو الدينية – في مهب الريح يعبث بها من نساء (؟؟؟) نساء.. وليس هكذا الحال في بلاد الدنيا.. وأذكر أني قبل نحو عقدين من الزمان شاركت في ندوة حول مستقبل حوض البحر المتوسط وكان المحاضرون من جميع التيارات السياسية الفرنسية.. ولفت انتباهي أن الندوة بدأت بإذاعة تسجيل للجنرال ديجول كان يتحدث فيها عن ثقافة حوض البحر المتوسط.. ثم توالت الكلمات، وكان أصحابها من الحزب الديجولي أو الاشتراكي أو اليميني المتشدد ننطلق من الجنرال ديجولي بوصفه رئيساً للجميع رغم اختلاف التيارات والمذاهب السياسية فكان أنصار اليمين المتطرف يتوقفون أمام ديجول بتعظيم وتفخيم لا يدانيه إلا شعور مماثل من الحزب الاشتراكي أو أحزاب الوسط بمختلف أطيافها..

وظلت – طوال أيام الندوة – سيرة ديجول على كل لسان، ونضاله من أجل (فرنسا الحرة..)وسألت نفسي: لماذا لم نجعل من جمال عبد الناصر صورة أخرى من ديجول، نشعر جميعا أننا ننتمي إليه، وأنه – بالفعل – زعيم كل المصريين.. وكنت بذلك ألفي اختلافا إلي حد الخصام والعراك حول عبد الناصر (؟؟؟) يراه

أحد أبرز (؟؟؟) الأمة المصرية والبعض الآخر يراه قد افترى على شعب مصر.. ونال من مستقبلها وفض على الأخف واليابس فيها..

أتذكر هذه الواقعة في الذكرى السادسة والخمسين لقيام هذه الثورة البيضاء التي صدّرت فعل التثوير إلي أرجاء القارات الثلاث: آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وكان اسم عبد الناصر عند قيام الثورة أشبه بالموتور الذي يملأ نفوس لشعوب العالم الثالث بالعزة والكرامة، والحرية..

كنت أتمنى أن يكون اسم هذا الزعيم العربي فوق كافة التيارات والأحزاب، يملكه الجميع لنكون «؟؟؟» جميعا، ليس بالمعنى السياسي الضيّق الذي فرضه البعض من خلال حزب أساء لعبد الناصر أكثر مما أفاده ونال من سمعته كزعيم لا يُباري..

وللإنصاف يجب أن نذكر أن العقدين اللذين تعاقبا بعد اندلاع الثورة تنفس فيهما المصريون مناخاً نفتقده كثيرا في هذه الأيام..

فكانت المشاريع الكبرى في السياسة (؟؟؟) شعارات..

إن حرية الكلمة هي المقدمة الأولى للديمقراطية، وإقامة حياة نيابية سليمة، وإقامة جيش وطني قوي.. أقول كانت مبادئ تملأ حيوان الشعب المصري بالحيوية والثقة، والإقبال على الحياة..

وفي الاقتصاد عبر شعار كلنا سيد في ظل الجمهورية، وكلنا شركاء في وسائل الإنتاج، وتكريس مبدأ الاشتراكية والحرية والوطنية.. شعر المواطن بالعزة والكرامة بعد طول امتهان واذلال..

وعاش الفلاحون أزهي عصورهم عندما أعلن قائد الثورة قانون الإصلاح الزراعي نوزع الأراضي على المُعدمين والفقراء، وقال إن الأراضي لمن يزرعها

وكان العمال يشعرون بالفخر لأنهم أصبحوا شركاء في امتلاك رؤوس الأموال..

وملأت المستشفيات أرجاء مصر، وكان العلاج مجانا، أما المدارس فكانت تظهر واحدة منها كل ثلاثة أيام، ويصدر كتاب كل ست ساعات..

وملأ التحدي الذي واجهته الثورة وقائدها بشأن السد العالي نفوس المواطنين بالكبرياء والعزة.. كلها مشاريع ثورية جعلته المناخ العام جديدا ومُحتمّلاً في ذات الوقت (؟؟؟) التفاؤل في غد أفضل..

وكانت رمانة الميزان في هذا المناخ الجديد تدور حول مبدأ تكافؤ الفرص الذي جعل الناس- جميعا- سواسية لكل منهم نفس الفرصة في المأكل والمسكن والتوظيف..

واختفت ألقاب «بك» و «بات» و «معالي السيادة».. وأصبحنا كلنا (أسياد) في مجتمع صحي يتنفس هواء الديمقراطية في طمأنينة..

اليوم تشعر باليُتّم، لأن هذه الأجواء غادرتنا في مصر إلي غير رجعة، فلا مشاريع كبرى، ولا مبدأ تكافؤ الفرص، ولا اشتراكين.. فالثروات هي المحل الأول والأخير في السياسة والاقتصاد والاجتماع..

واختفت الطبقة الوسطى، وعادت مصر إلي مجتمع النصف في المائة كما كانت قبل الثورة وأصبح الكثيرون مُهددين بالموت جوعا وتعطشا ومرضا..

بكلمة أخرى، اندثرت ملامح ثورة يوليو ١٩٥٢، ولم بعد يذكرها أحد، والعجيب أن أبناء الطبقة التي استفادت منها، هم الذين يحاربونها في كل مكان، ويمسحون أكمل من ذاكرة الأجيال إنها واحدة من أعاجيب مصر في القرن الـ٢١.

باختصار: لدىّ قناعة بأن جيلاً بعينه من أجيال مصر تآمر على الثورة، ووضع الخطط لإجهاضها.. فخسر وخسرنا، وحل علينا جميعا الخراب.

متى نبدأ من داء العسكرة؟!

بمناسبة الحديث عن عبد الناصر – حيث تخرج «الجرذان» من الجحور «تسب» و «تلعن» زمنه ومرحلته وتحمله الجزء الأكبر من «الخيّبات» التي تملأ حياتنا في السياسة والاقتصاد والاجتماع..

أقول بعيداً عن الخوض في مسائل أراد لها عبد الناصر (؟؟؟) تكون شيئاً، فصارت شيئاً آخر.. فالتعليم، مثلاً (؟؟؟) عبد الناصر كالماء والهواء أصبح كالذهب والأحجار الكريمة لا (؟؟؟) عليه إلا الأغنياء وأصحاب الترددات..

وأراد تحديد الاقتصاد المصري من الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم، فأصبح في قبضة الانتهازيين والرأسماليين (؟؟؟) وأراد عبد الناصر لمصر والأمة العربية الاستقلال التام فأصبح الحال غير الحال وملأت القواعد العسكرية الأمريكية (والفرنسية) الأرجاء من المشرق إلي المغرب ومن البحر إلي الخليج!!

على أية حال هذا ما كان يريده الرجل فاتجهت به المقادير إلي إرادات أخرى.. وأصبح عبد الناصر من وجهة نظر (؟؟؟) (ملعونا).. كما أصبحت إفطاره حول القومية، وتكافؤ (؟؟؟)

«وكلنا سيد في ظل الجمهورية» إفطار بالية تجاوزها الزمن.

ليكن ذلك ما دامت قد ارتاحت قيادات اليوم لهذه الأحكام وتلك الصياغات.. لكن ما تلفت الانتباه أن «الناس في بلادي» قد تعاملوا مع إرث عبد الناصر (؟؟؟) لا تخلو من خبث وعدم أمانة وانتهازية..والمثال عندي هو مسألة عسكرة الوظائف التنفيذية العليا من رئاسة حي أو مدينة وانتهاء بمنصب المحافظ أو الوزارة.

ففي زمن عبد الناصر – واستناداً إلي مبررات قد لا تكون مقنعة لكن ما حدث حدث – كان مبدأ أهل الثقة يجب كل المبادئ الأخرى ويكاد يلغيها تماما،

وامتلأت (؟؟؟) النافذة «بالعسكر» من كل لون وصنف..

وسؤالي الآن: إذا كانت إفطار عبد الناصر تثير القيء والغثيان في نفوس أهل الحل والعقد اليوم، فلماذا إذن تتمسكون بهذا المبدأ الناصري المقيت!

أم أن عبد الناصر – في هذه الحالة – كان رجلاً (سابقا) (؟؟؟) ومفكراً من طراز وطني رفيع..

غريب أمر الناس في بلادي! فعبد الناصر ليس إلا شيطانا مريدا، إذا كان الأمر يتعلق بإنصاف الفقراء، ومجانية التعليم، وتعزيز الكرامة (؟؟؟) وتوزيع الثروة على الشعب، وتكافؤ الفرص أمام (؟؟؟) السفير وابن الحقير دون فروق أو (؟؟؟) ثم هو – أي عبد الناصر – يصبح فجأة ملاقاً إذا تعلق الأمر بمبادئ يستفيد منها الطامعون، والانتهازيون، والراغبون في تكويش الثروات على حساب الشعب..

لماذا هذه الانتقائية التي تمثل (؟؟؟) (إدانة) لعصور (؟؟؟) عبد الناصر..؟!

إنه سؤال لا يجرؤ أحد من «الكبار» الإجابة عليه، فاللعاب يسيل دائماً نحو «التموقع» و«التبوأ» واعتلاء (؟؟؟) الصلب.. وفي هذه الحالة، فإن العسكرة «تعلو ولا (؟؟؟) وهنا يستحق عبد الناصر الدعاء والشهادة له بأنه كان «جنرالاً» صاحب رؤية استراتيجية صالحة لكل العصور إنه نفاق مقيت.. لكن هذا هو واقع الحال!

ثم هناك مبدأ آخر أخذ به عبد الناصر – وله في ذلك (؟؟؟) ويتعلق بنسبة الـ ٥٠٪ عمالاً وفلاحين.. والسؤال الآن لماذا تعدّ على هذه النسبة التي يبدو ظاهرها (الديمقراطية) »أما باطنها فهو أشرّ أنواع الاستبداد..

وللإنصاف يجب أن نذكر أنها صيغة (همايونية) وغير محددة الملامح خصوصاً إذا دخلنا في باب التعريفات أو التصنيفات وما معنى العامل وما معنى الفلاح.. الخ..

لكن يتمسك بها أهل الحل والعقد، ويحمدونها لعبد الناصر كثيرا، لأنها تضمن (تمرير) ما يشاءون من قرارات إذ يكفي أن يضرب الجالس على المنصة بالخشبة التي تلمع في يده ويقول (موافقة!) منهم الـ ٥٠٪ عمالا وفلاحين رؤوسهم.. في إشارة للطاعة والثقة وعدم التردد..

والتناقض الواضح هنا أن السنوات الأربعين الماضية شهدت- بما تقول التقارير- طفرة في التعليم وتقلصت نسبة الأمّية وأصبح الشعب المصري (قارئا) بامتياز وجامعات مصر (العامة والخاصة) تقذف- كما مصانع الزبادي- الطلاب وهم يحملون شهادات التخرج.. وهي دلالة على أن مساحة الوعي أصبحت عريضة وممتدة.. أقول إذا كان ذلك كذلك.. فلماذا الإصرار على هذه النسبة المقيتة التي لا وجود لها في أي دولة من دول العالم..؟

أم عساه يكون (التبرك) بعبد الناصر، الذي يكون في هذه الحالة أشبه بأولياء الله الصالحين المكشوف عنهم الحجاب..

يا قوم، إن تجربة عبد الناصر لها ما لها، وعليها ما عليها.. وإن كنتم صادقين مع أنفسكم (وشعبكم) فاكشفوا عن تجربتكم الخاصة واتركوا ملف عبد الناصر في ذمة التاريخ..

كونوا شجعانا وارحمونا من العسكرة التي سدت علينا كل المنافذ، وادفعوا بنسبة الـ٥٠٪ عمالاً وفلاحين إلي المتحف.